الغزو الفكري للجزائر
(1830 -1870)م

أ. محمد بن شوش
جامعة الجزائر

ملخص:

إن الغزو الفكري للجزائر كان جزءا من الغزو العسكري الإستعماري الفرنسي، وتميزت الفترة الممتدة من 1830 إلى 1870م ببداية التهديم والسيطرة على المؤسسات الدينية والتعليمية ومواردها، بالإضافة إلى قتل ونفي الكثير من رجال الثقافة الجزائرية ، ومحاربة اللغة العربية وتشجيع العامية ومحاولة تجهيل الجزائريين.

لقد انتقلت فرنسا من سياسة التهديم إلى محاولة إيجاد بديل والإعتماد على المدرسة الفرنسية وتحقيق الفرنسة والإدماج الثقافي للشعب الجزائري ونشر المسيحية، فانتشر التخلف والضعف، كما ظهرت نخبة جزائرية تدافع وتعمل على استمرار الثقافة الجزائرية رغم كل الظروف.

إن الغزو الفكري لا ينفصل عن الغزو العسكري الإستعماري، لأنه جزء من الهمجية الإستعمارية التي تستهدف الإستغلال وتتجه إلى جميع المقومات الحضارية للجزائر.

ولهذا كان المستعمرون يتجهون إلى السيطرة على الأرض وعلى المقومات الحضارية، مستهدفين بذلك غايتين، الأولى إثراء الدولة المستعمرة، والثانية تجريد الجزائر من تراثها الحيوي، وفصلها عن إرثها الثقافي الذي يعتبر الحصن المنيع المقاوم للإستعمار.

لقد مر الغزو الفكري بالجزائر بعدة مراحل، أهمها مرحلة التهديم للمؤسسات الثقافية الجزائرية والبداية المحتشمة لإيجاد بديل استعماري من 1830 إلى 1850م ومرحلة التطور البطيء (1850 -1863م) والمرحلة النشيطة من 1863 إلى 1869م، وتغيرت السياسة الفرنسية بعد ذلك بسبب مجيء الحكم المدني في الجزائر، وإنهزام فرنسا أمام الألمان وتطور المقاومة الوطنية والفشل في التقليل من عدد الجزائريين ، واستمرار نموهم الديموغرافي، وعموما يعترف الإستعمار بأن هذه الفترة (1830 -1870م) تميزت بتهديم المقومات الثقافية الجزائرية[1].

1 – السيطرة على المؤسسات الدينية والتعليمية ومواردها:

دخل الاستعمار الفرنسي الجزائر في 1830م، وحرر قائد الحملة الماريشال دوبرمون معاهدة وقع عليها بعد ذلك حسين داي، وكانت تضم ستة بنود أهمها إثنان، وهما البند الذي يخص احترام

الداي وأسرته والتعهد له بحمايته، والبند الخاص باحترام الدين الإسلامي والممتلكات. لكن هذه المعاهدة بقيت حبرًا على ورق، إذ لم يمر على احتلال البلاد أسابيع قليلة حتى نقضت. وأول شيء قام به الجيش الفرنسي هو إقامته واستقراره بالدور والمحلات التجارية والمساجد والقصور.

لقد كان عدد المساجد التي حولت إلى سكن للجيش[2] حوالي أربعين مسجدًا[3] وعدة مدارس ومعظمها بباب الوادي وباب عزون، وقام بعد ذلك الاستعمار بتهديم بقية المساجد والمؤسسات التعليمية، تحت ستار إصلاح المنطقة وتوسيع شوارعها، فكانت النتيجة الأولى لهذه التصرفات أنه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى ضُربت مؤسسات كثيرة .

وبالتالي فإن المؤسسات التعليمية بالجزائر تعرضت لمحاربة شديدة بمختلف الوسائل والأساليب، لأنها كانت تمثل عائقًا كبيرًا أمام توسع السيطرة الاستعمارية، وسياسة التجهيل والتنصير والفرنسة، وحورب رجال العلم والأئمة وشيوخ الزوايا، وحدد نشاطهم الديني والثقافي، وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة[4].

ونفي الكثير منهم وشرّدوا إلى مناطق نائية داخل البلاد وخارجها، وأرغم البعض على الاشتغال بالجوسسة لصالح الشرطة الفرنسية، وتم إغلاق الكثير من الزوايا وهدم البعض منها، خاصة

التي شاركت في مقاومة الاحتلال الفرنسي[5]، وانقسم بعد ذلك الرأي الفرنسي إلى قسمين، قسم يرى ضرورة القضاء على كل الزوايا باعتبارها مراكز تنطلق منها جميع الثورات[6]، وقسم آخر يرى ضرورة الاهتمام بكل ما يخص الزوايا والتقرب من شيوخ الطرق والحصول على ثقتهم، وهكذا تتمكن فرنسا من السيطرة على مجالات كثيرة.

إن فرنسا قد تمكنت من إضعاف نفوذ العديد من الزوايا عندما دخلت معها في مفاوضات، انتهت بإمضاء اتفاقيات مشتركة، اعترفت فرنسا بموجبها بالسلطة الروحية والأخلاقية للعائلات ذات النفوذ الواسع، وأمدتها بالأرض وساعدتها على بسط جاهها، وأعطتها صلاحيات اجتماعية واقتصادية على السكان وساندتها عند الحاجة[7]. واستعملت بعض الزوايا الأخرى كوسيلة لتحقيق بعض المشاريع التوسعية للاستعمار، وقامت بإجراءات تضعف بها دور الزوايا ومنها : تحديد المدارس القرآنية واحتكار التعليم فيها، توظيف بعض شيوخ الطرق في الإدارة الفرنسية[8]، منع الزيارات والصدقات وشددت الرقابة على الرسل الأجانب[9]، بالإضافة إلى مراقبة الزوايا مراقبة سرية وتقديم تقارير إلى الوالي العام.

إن أحسن مثال على تصرفات فرنسا بالمؤسسات الدينية والتعليمية، ما صنعته بجامع كتشاوة في العاصمة، إذ قام القائد العام للجيش الفرنسي الكونت دي بورمون بأمر الجيش الفرنسي دخول مسجد كتشاوة وهو مدجج بالأسلحة، فاستشهد الكثير من

الجزائريين، وحوّل المسجد إلى كاتدرالية[10]، وبعد تعيين المارشال فالي واليا عاما على الجزائر، أمر بوضع الصليب على الكاتدرالية في 1839م[11].

بدأ الاستعمار الفرنسي في الاستيلاء على موارد التعليم منذ بداية حكم كلوزيل، الذي أحصى الملكيات وأصدر قرار يوم 8 سبتمبر 1830م، يقضي بمصادرة أملاك الأتراك[12]، ثم أوقاف مكة والمدينة، فاحتج الجزائريون وتراجعت فرنسا عن الاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة، وبعد ثلاثة أشهر أصدر كلوزيل قرارًا آخر يوم 7 ديسمبر 1830م يقضي بضم كل الأملاك الدينية التي تشمل أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا إلى مـــصلحة أملاك الـــدولة.[13]

كانت الأوقاف العامة كثيرة بمدينة الجزائر، إذ قدر عددها في الأيام الأولى من الاحتلال ألفان وستة مائة (2600) ملكية وعدد غير قليل في المدن الأخرى، كقسنطينة ووهران، وهي أنواع مثلا في مدينة الجزائر هي كما يلي : أوقاف مكة والمدينة[14]، سبل الخيرات[15]، الجامع الكبير[16]، أوقاف الأندلس[17]، الانكشارية[18]، المياه[19]، الطرق[20]، الزوايا[21].

وبمقتضى قرار 7 ديسمبر 1830م، أصبحت كل الأوقاف ملكا للدولة وتابعة لمصلحة أملاك الدولة (الدومين)، غير أنه أبقي على الوكلاء الذين كلفوا بجمع المداخيل وتسليمها إلى السيد

(جيراردون) الذي عين مديرًا لإدارة أملاك الدولة، واختير لهذا المنصب لأنه كان يجيد اللغة العربية. ونظرًا لأهمية هذا المنصب، وضع إلى جانبه موظفون مدنيون يساعدونه في مهمته[22].وإن السلطة الفرنسية قد ترددت كثيرًا في تطبيق قرار 7 ديسمبر، ولم تتمكن من تطبيقه تطبيقاً كليًا بمدينة الجزائر، وتمكنت من ذلك في مدينتي وهران وعنابة، بحجة أن البند الخامس من اتفاقية 5 جويلية 1830م يخص مدينة الجزائر فقط.

ولإضفاء الشرعية القانونية على استحواذ الفرنسيين على الأوقاف، جاءت عدة قرارات وقوانين تدعم قرار 7 ديسمبر 1830م، ومنها قرار بيجو الصادر في 23 مارس 1843م، والقاضي بوضع الأوقاف تحت سيطرة موظف فرنسي سامي بإدارة (الدومين)، وهذا لخدمة هدفين معا : اقتصادي، وهو الزيادة في الميزانية الفرنسية، وسياسي وهو السيطرة على أصحاب الرأي المضاد للوجود الفرنسي.

أما قرار أكتوبر 1844م فقد منع انتقال الأملاك من أصحابها الأوروبيين إلى المسلمين[23]، وتعمل السلطة على استمرار الاستفادة بها وتنشط الاقتصاد وتحمي مصالح الأوروبيين الدخلاء.

بهذه الطريقة حاولت فرنسا القضاء على الأوقاف التابعة للمؤسسات التعليمية، ولجأت إلى أكثر من ذلك في 30 أكتوبر 1858م، بقرار ضرورة انتقال الأوقاف من مسلم إلى يهودي، ولا يمكن أن تكون العكس وهذا للقضاء على قيمة الأوقاف التي

يجب أن لا تبقى بأيدي أمينة تحافظ على المصلحة العامة، وهكذا فإن الأوقاف التي أصبحت بأيدي فرنسا وعملائها قد تطورت[24]، أما التي بقيت بأيدي الجزائريين فقد تدهورت وانخفض دخلها[25] بسبب تدخل السلطة الفرنسية في تسيير الأوقاف وأخطاء بعض الوكلاء الذين استعملوها لصالحهم الخاص، بالإضافة إلى عملية الاستيلاء والهدم ومبالغ كرائها الزهيدة، لأن معظمها كان يسيرها فقراء.

لقد توجهت فرنسا بعد ذلك إلى المكتبات وقامت بإحصاء وجرد محتوياتها ، وأحرقت ودمرت البعض، ونقلت بعض المخطوطات إلى باريس وغيرها، وهذا مثل ما حصل لمخطوط مدينة الجزائر وقسنطينة وتلمسان وبوسعادة ومعسكر وغيرها[26].

2 - محاربة اللغة العربية وتشجيع العامية:

لقد وجدت الإدارة الاستعمارية ضرورة للاهتمام بلغة الجزائر وثقافتها، لتتمكن من التوغل والسيطرة، فأمرت في البداية بإنشاء مكتبة عمومية في الجزائر وبداية الاستحواذ على المخطوطات والكتب وتصنيفها. ومن جهة أخرى كلف مفتش عام للتعليم بتنظيم دروس بالفرنسية للعرب واليهود، وتنظيم دروس باللغة العربية للفرنسيين.

إن هدف الدروس بالفرنسية حدده دي روفيجو بقوله : "إن الجزائر لن تكون حقيقة من الممتلكات الفرنسية إلا بعدما تصبح

لغتنا لغة قومية فيها، والمعجزة التي ينبغي تحقيقها هي إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية تدريجيًا، ومتى كانت اللغة الفرنسية لغة السلطة والإدارة، فإنها سوف لا تلبث أن تنشر بين الأهالي، ولاسيما إذا وجدت مدارسنا إقبالاً من الجيل الجديد، وأنا لا يساورني شك في أنه بعد مضي وقت قصير سوف يجتمع في فصل واحد، وحول أستاذ واحد أبناء الفرنسيين والإسبان والعرب واليهود"[27].

أما اللغة العربية فقد كلف بها جواني[28] فرعون ونص قانون 1834 على ضرورة تعلم اللغة العربية من طرف الضباط والمواطنين.

وقد كان لفرعون السبق في وضع أول كتاب في النحو للعربية العامية الموجهة للفرنسيين، ثم ظهر كتاب وصايا لقمان[29].

لقد كلف بعد ذلك بريسني (Bresnier) بتدريس اللغة العربية ابتداء من 1836م، وقد أكد على ضرورة تعلم اللغة العربية وصرح قائلا : "...إن ذلك يمكننا من إقامة علاقة أوثق مع الأهالي الذين سيتعودون على وجودنا، ولا يعتبروننا غزاة منتصرين، بل حماة لمصالحهم وممدنين لبلدهم، وهكذا سوف نتمكن من التوغل في تاريخهم حتى نصل إلى مصادر أفكارهم ونعرف أحكامهم المسبقة وعاداتهم وتقاليدهم..."[30].

وأكد بريسني (Bresnier) بأنه يجب على فرنسا بأن لا

تكتفي بتقديم المعارف الضرورية في اللغة والتاريخ والأدب، بل يجب أيضًا أن توفر وسائل الاتصال مع الجزائريين بواسطة الكتابة والمحادثة لنقل جميع أشكال التغيير.

لقد استمر بريسني 25 سنة في تدريس اللغة العربية، وفي 1867 نشر كتاب مبادئ اللغة العربية[31].

إن أوغست شاربونو (Cherbonneau) من بين الأساتذة الذين كلفوا بتعليم بعض الجزائريين وإدماجهم في المجتمع الفرنسي، فكان مدرسًا بقسنطينة ثم مديرًا للمدرسة العربية الفرنسية، وألف قاموسين فرنسي عربي وعربي فرنسي، وفتح بدراساته الباب واسعًا لدراسة العامية ومعرفة الأوضاع الشخصية والميراث في المجتمع الجزائري المسلم[32].

وحل بعد ذلك دوسلان (De Slanne) مكان شاربونو (Cherbonneau) في تدريس اللغة العربية سنة 1846م، وكلف بإعداد تقرير عن المخطوطات الجزائرية، وذكر بأن المكتبة الوطنية الجزائرية تحتوي على 700 مخطوطًا عربيًا، كان بيربروجر هو الذي تولى جمع معظمها.

إن دوسلان هو الذي ثبت استعمال اللغة العربية في المعاملات الاستعمارية مع الجزائريين بالمراسلات وبعض الوثائق الرسمية ، وانتقل بعد ذلك إلى ترجمة ابن خلدون.

لقد أكد الأستاذ كور (Cour) بأن دوسلان هو من يعرف

اللغة العربية في فرنسا أكثر من أي شخص آخر، وذلك لأنه عمل نحو اثنتى عشر سنة في الجزائر رئيسا لمترجمي الجيش، الأمر الذي سمح له بتطوير علمه الواسع باللغة العربية[33].

لقد سعت فرنسا إلى بذل جهود كبيرة لمعرفة اللغة العربية، ومحاولة غرس اللغة الفرنسية في بعض العقول الجزائرية، وقامت بترجمة العديد من الكتب في التاريخ، الأدب، الفقه، الرحلات...، كما شجعت فرنسا العامية وحاولت فصل الشعب الجزائري عن اللغة العربية وقد تضمن مؤتمر التنصير المنعقد بكولورادو بحثا بعنوان "الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين: "... ونظرا لتعدد اللهجات في اللغة العربية يجري العمل على ترجمة الأناجيل الأربعة بها وقد نشرت الكتب المقدسة باللغات الجزائرية... إلا أن تلك الترجمات لم تجد قبولا يذكر...."[34].

وقد أسندت مهمة تدريس اللغة العربية والعامية لمدارس اللغة العربية وأساتذتها وهي كما يلي:

مدرسة الجزائر ظهرت في 1832

ج. فرعون (J. Pharoun) من 1832 – 1836م

بريسني (Bresnier) من 1836 – 1869م

كومبرال (Combarel) من 1869 – 1874م

ريشوبي (Richebé) من 1874 – 1877

هوداس (Houdas) 1877م

مدرسة قسنطينة ظهرت في 1846

فينار (Vignard) 1846م

شاربونو (Charbonneau) من 1846 – 1863م

ريشابي (Rechebé) من 1864 – 1874م

مارتن (Martin) 1874م

مدرسة وهران ظهرت في 1846

هادمار (Hadmard) من 1846 – 1855م

كامبرال (Combarel) من 1855 – 1869م

هوداس (Houdas) من 1869 – 1877م

ماشويل (Machuel) 1877م[35]

أهداف الغزو الفكري:

لجأت فرنسا إلى الإعتماد على التعليم للغزو الثقافي فجربت أكثر من عشرة أنواع[36] لأن السياسة التعليمية كانت رسالتها العاجلة هي تكوين جزائريين، يكونون واسطة بين الشعب الجزائري والاستعمار الفرنسي، لهذا اقترح جونار في 1831م ضرورة تعليم المسلمين الجزائريين اللغة الفرنسية والفرنسيين تعليم اللغة العربية، لكي يستطيع الاستعمار التوغل والتوسع بعد معرفة ثقافة الجزائريين والحد من خطر بعض المتعلمين الجزائريين، المتخرجين من الزوايا والمساجد والمستمرين في مقاومة الاستعمار[37].

وفي هذا الإطار، أكد الدوق دو **روفيقو** في أكتوبر 1832م بأنه قد فتح مدرسة في مدينة الجزائر جمع فيها بعض الأطفال

الجزائريين مع الفرنسيين والإسبانيين والإيطاليين واليهود، وهذا لإنتاج مجتمع موحد الأفكار قابل للاستعمار وللحضارة الفرنسية. وفي سنة 1833م قررت السلطات الفرنسية ضرورة فتح مدارس بمدينة الجزائر ووهران وعنابة ودالي ابراهيم والقبة، وذلك لتكوين مدرسين ورجال دين توليهم بعد ذلك مهمة الإفتاء والقضاء والتدريس والترجمة والإمامة في المساجد، بالإضافة إلى الإدارات الفرنسية الثانوية[38].

إن المدارس التي أقامتها فرنسا في البداية، كانت تعرف باسم مدارس أطفال الأعيان لأنها كانت لأبناء الموالين للاستعمار، وكان يهدف إلى إقناعهم بأن الاحتلال الفرنسي جاء لنشر رسالة حضارية، وأن وجوده أصبح ضروري ويجب العمل على استمراره. وبعد ذلك دعا بعض الفرنسيين إلى عدم تقديم التعليم النظري العلمي، وإنما يجب التركيز على التعليم الصناعي الزراعي البسيط، وفي سنة 39 18م تكونت لجنة لكتابة وترجمة بعض الكتب الفرنسية إلى اللغة العربية، لتوجيه التعليم اليدوي المهني، لأنه أصبح تكوين المدرسين والقضاة والكتاب والموظفين غير كاف لخدمة المستعمر واستمرار توسعه، وشجعت الدراسات الاجتماعية الخاصة بسكان الجزائر[39] للتشكيك في أصلهم، وانتمائهم العربي الإسلامي والتمهيد للتغلغل وتحقيق أهداف السياسة التعليمية، وهي الفرنسة والتنصير والإدماج.

أ – سياسة الفرنسة : هي سياسة هدفها الأساسي إبعاد اللغة العربية والثقافة الجزائرية، وإحلال مكانها اللغة الفرنسية والثقافة الاستعمارية، وهذا لتقطع الروابط الحضارية التي تشد الجزائريين ببعضهم البعض، وتربط الجزائر بالعالم الإسلامي.

ليس هذا فقط، بل كان الفرنسيون يعملون جاهدين لتكون الجزائر هي نفسها فرنسا، إذ اعتبرها قانون 1848م قطعة وأرضًا فرنسية تخضع للقوانين الفرنسية، وأنها امتداد لفرنسا الجنوبية[40].

وأراد نابليون الثالث في سياسته المشهورة بالمملكة العربية، أن يفتح أمام الجزائريين باب المواطنة الفرنسية، وفي سنة 1865م أصدر قانونًا يحدد الوضع الجديد للجزائريين، فهم يعتبرون جميعًا رعايا فرنسيين يخضعون في الخارج لحماية قناصل فرنسا[41]، لكنهم لا يتمتعون بنفس حقوق الفرنسيين إلاّ بعد التجرد عن أحوالهم الشخصية وإتباع القانون الفرنسي في الأحوال المدنية[42]. ركزت السياسة الاستعمارية على إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية[43]، وأن تصبح الجزائر جزءًا من فرنسا، وعندما وجدت صعوبة في تحقيق ذلك في كامل التراب الجزائري، ركزت جهودها على منطقة القبائل بحجة أن عاداتها وتقاليدها تختلف عن المناطق العربية، وهذا لتتمكن من بناء النظرية العنصرية الاستعمارية الفرنسية، التي تدعي بأن العناصر القبائلية من أصل

أوروبي وليس عربي[44]، لكن هذه السياسة أثبتت فشلها أيضا ولم يستطع الاستعمار تأسيس مدارس بالقبائل بسبب استمرار المقاومة.

استمر الاستعمار في عملياته، وحاول تطبيق فكرة ازدواجية اللغة، وهذا لسد الطريق والوقوف في وجه تطور اللغة العربية، وبلبلة أفكار أبنائها، بالإضافة إلى ذلك تكوين صراع طبقي اجتماعي بسبب اختلاف اللغة وطريقة التفكير والعمل والموقف من الاستعمار.

لجأت أيضًا سياسة الفرنسة إلى تغيير أسماء المدن والقرى والشوارع والساحات، بأسماء فرنسية أو حتى رومانية، وذهب أكثر من ذلك، ففي 1882م ظهر قانون الألقاب والأسماء الجديدة، وكان الهدف هو القضاء على المجتمع ودينه ولغته وعاداته وتقاليده، لكن الجزائريين رفضوا ذلك لأنه جزء من مقاومة الاستعمار ككل، وتمسك الشعب بهويته.

ب – سياسة الإدماج : اعتبرت المدرسة الوسيلة التي تدخل الجزائريين في الحضارة الفرنسية، وتحقق بسهولة التحكم فيهم، ويؤكد ذلك ما أشار إليه الجنرال هوت بول في 1850م، إذ يقول : "إن أنجع الوسائل لإقرار الأمن هو إدماج الجزائريين في المسيحية"[45]. كان هدف الاستعمار هو تكوين مجتمع فرنسي في الجزائر، يكون خاضعا ومستجيبا لحاجياته وحاول ذلك باستعمال سياسة الحرب والتدمير والتجويع، وجاء بعد ذلك بشتات من

الأوروبيين الذين قدمت لهم المساعدات والتسهيلات الكثيرة[46]، ثم لجأت فرنسا إلى إدماج ملكيات الجزائريين وذلك بقوانين جديدة أو بالقوة، وعملت على القضاء على نظام الحبوس ذي الطابع الاقتصادي الاجتماعي التضامني، وهكذا تدهورت أوضاع الجزائريين اقتصاديًا، وانتشرت البطالة والبؤس والشقاء وتطور نظام الخماسة. إن الاستعمار اعتقد أن إدماج ممتلكات الجزائريين تؤدي بالضرورة إلى إكراه الجزائريين وقبولهم بفكرة الاندماج، لكنه لم يفلح في ذلك، فلجأ إلى مساعدة فئة من العملاء لتكون واسطة بينه وبين المجتمع الجزائري[47].

ركّز الاستعمار على هذه الفئة ووظفها في الجيش والمدرسة، وأمدها بمختلف المساعدات حتى كوّن البعض طبقة البورجوازية الخبيثة تخرب بيتها بيدها، وتعمل على ضمان الاستعمار. لقد عارض كثير من الفرنسيين هذه السياسة واعتبروا عملية الإدماج هي وسيلة القضاء على الاستعمار في الجزائر[48]، لأن بعض الجزائريين سيحاولون الحصول على نفس الحقوق مع الفرنسيين ماديًا ومعنويًا.

إن أمام هذا الضغط، سمحت فرنسا لبعض الجزائريين الراغبين في الاندماج والذوبان في الشخصية الفرنسية، بشرط التخلي عن الأحوال الشخصية الجزائرية والابتعاد عن كل العادات والأسرة والمجتمع، وأصبحت هذه الفئة تمثل خيانة كبرى للمجتمع

والوطن، لهذا أدرك بعض الجزائريين أن سياسة فرنسا تهدف إلى استغلالهم، فأعرضوا عن مدارسها الإدماجية ولم تنجح إلا على الأرض التي اعتبرتها فرنسية، أما الإنسان الجزائري فبقي مقاومًا لمختلف محاولات الاستعمار ومتمسكًا بمقوماته، ويؤكد ذلك ما أشار إليه الجنرال بيجو عن الاندماجيين الجزائريين فيقول: "إذا طبختم رأسًا عربيًا وآخر فرنسيًا في قدرة واحدة خلال ثمانية أيام ستعطيكم حسائين مختلفين"[49].

ج – **سياسة التبشير** : التبشير يوحي ظاهره بشيء فيه فرح وفيه اطمئنان، لكن باطنه عملية تضليل وتنفير للجزائريين عن مقوماتهم وشخصيتهم، واتسم ذلك بتعاون رجال الكنيسة مع العسكريين الفرنسيين، واعتبر احتلال الجزائر في عام 1830م فتحا مسيحيًا وبداية وعودة أمجاد الماضي، وتحقيق الحلم القديم، وهو حلم إفريقيا المسيحية.إن من الأعمال الأولى التي قامت بها الكنيسة بعد انتصابها فوق أرض الجزائر، هي كتابة تاريخ الكنيسة الإفريقية والعودة إلى العهدين الروماني والبيزنطي[50]، لتعطي رسالتها التبشيرية الجديدة أسسًا تاريخية تعود إلى قرون بعيدة، وكانت ترى بأن الفتح الإسلامي في الجزائر خطأ لا يغتفر[51]. وأكد في هذا الصياغ شارل العاشر في 02 مارس 1830م بأن هدف الحملة الفرنسية يجب أن يقدم فائدة كبرى للمسيحية.

إن قائد الحملة الفرنسية دوبرمون (De Bourmont) قد جلب معه ستة عشر قسيسًا، وأعلن أمامهم عن إعادة فتح باب المسيح في إفريقيا ونشر تعاليمه الحضارية في هذه المنطقة من جديد، وبدأت عمليات النهب والتدمير وتحويل المساجد إلى كنائس وإلغاء شرعية الأعياد الدينية الإسلامية والاستيلاء على الأوقاف[52].

لقد نشطت الكنيسة بعد احتلال الجزائر، وظهرت جمعية المبشرين وجاء قانون الأبرشة في سنة 1849م، الذي نص في أحد بنوده على ما يلي : "... يجب أن لا ينسى الرهبان رسالتهم الأصلية لدى سكان الجزائر، وهي تنصيرهم عندما تحين الفرصة، ولذا يجب عليهم تعلم اللغة العربية والقرآن ودراسة عادات الأهالي وتقاليدهم، حتى يتمكنوا من اطلاعهم على الجانب الغالط واللاأخلاقي في عقيدتهم"[53].

وهكذا، فإن المبشرين كانوا يقومون بدور بارز ويحضرون لعملية الاستعمار الكامل، ومن أشهرهم فرانسوا بورغاد (1806م - 1866م)، الذي ألف عدة كتب منها "مفتاح القرآن" الذي يمجد فيه مشاريع الحكومة الفرنسية، بأنها تهدف إلى تحسين حالة الجزائريين. ومن جهة أخرى هاجم المقاومين الجزائريين خاصة الأمير عبد القادر، إذ ادعى بأن أعماله تضر بمصالح الجزائريين والإسلام أكثر مما تنفعها[54]، وكان هذا الأسلوب تمهيدًا لتشويه مقومات الجزائريين ونشر المسيحية.

ومن الذين تزعموا الكنيسة أيضًا ودعموا الاستعمار، الكاردينال لافيجري[55] (1825م - 1892م)، أسقف الجزائر، إذ كان يعتبر بأن نشر المسيحية ركن أساسي في البناء الاستعماري الذي تنشده فرنسا، فالكنيسة وفرنسا متحدتان لإحياء أمجاد الماضي.

وهنا يرتقي لافيجري ويصبح ممثلا لسلطة الكنيسة وتصبح له سلطة تفوق السلطة السياسية والعسكرية، ويظهر ذلك من خلال المعارضة الشديدة للماريشال ماك ماهون، وتحفظ الإمبراطور نابليون الثالث فإنه يواصل سياسته التبشيرية[56]، خاصة بعد انتشار مجاعة سنة 1868م، حيث استغلها وأنشأ مأوى للأرامل واليتامى بمنطقة الشلف، وأراد أن تصبح قرى عربية مسيحية.

وكلف رجال طريقته الجديدة (جمعية مبشري إفريقيا) المعروفة بالآباء البيض، بجمع الأطفال اليتامى ليوزع عليهم الخبز أولا ثم ينصرهم، واستطاع أن يجمع حوالي 1753 يتيمًا، وبعد انتهاء آثار المجاعة تخوفت السلطة الفرنسية من ثورة الجزائريين، فتدخل الحاكم العسكري ماك ماهون لإرجاعهم إلى أهاليهم، فرفض الكاردينال لافيجري ذلك[57].

إن الكنيسة كانت في معظم الأحيان هي صاحبة السلطة في تحديد نطاق التعليم والتحكم في نوعيته، حتى وإن كانت ظاهريا تبدو بأنها مرتبطة وتابعة لسلطة العسكريين، وعمومًا

كان المبشرون والعسكريون والإداريون كلهم متفقين على استمرار استعمار الجزائر، وكان لكل فريق نظرته الخاصة إلى التعليم، إذ كان المبشرون يركزون على الدعاية الدينية، ويهتمون بإشعار التلاميذ الصغار بأن انتماءهم إلى المسيحية سيحسن من وضعيتهم في حياة الدنيا، ويجازون أحسن الجزاء في الآخرة.

أما السلطة الإدارية والعسكرية، فكان همها منصبا على تعليم الجزائريين اللغة الفرنسية، أو حرفة يدوية[58].

وهكذا نرى أن التربية الأخلاقية، هي الشعار الذي يركز عليه المبشرون لإعداد بعض الجزائريين، لتولي مناصب دينية صغيرة في الكنائس، بينما كانت السلطة الاستعمارية تسعى جاهدة لإعداد موظفين بسطاء يحققون بعض حاجيات الاستعمار[59].

إن مع وجود هذه الاختلافات لا بد من التأكيد على أن هناك هدفا مشتركا بين المبشرين والإداريين، وهو أن التعليم يعتبر وسيلة لتحقيق هدف الاستعمار وضرب مقومات الجزائريين، وخاصة منها اللغة العربية والدين الإسلامي[60].

لم تفلح فرنسا في الوصول إلى عقول الجزائريين، بالطرق العاطفية الدينية التي يتزعمها الآباء البيض، الذين لم يكن لهم من البياض إلا بياض الثياب وسواد القلوب ونقمتهم على الشعب الجزائري. ويؤكد هذا الفشل ما أشار إليه المستشرق "جاك برك" فيقول : "إن عدد الجزائريين الذين اعتنقوا المسيحية في عهد

لافيجري لم يبلغ ألف جزائري، رغم الوسائل الكبرى التي سخرها، ومساندة النظام الاستعماري واستغلال لافيجري لانتشار المجاعة والأوبئة، في سبيل تحقيق خطته"[61].

نتائج الغزو الفكري:

لقد ركز الغزو الفكري الاستعماري على محو السمات المميزة للشعب الجزائري، فهاجم الثقافة العربية الإسلامية وأراد تحويل الجزائر إلى مقاطعة فرنسية، فأدى ذلك إلى انتشار التخلف والضعف، وظهرت بعد ذلك فكرة نشر الحضارة في الجزائر اعتمادا على التعليم.

إن المدارس الفرنسية بمختلف أنواعها ومراحلها أدّت إلى ظهور مجموعة من المتخرجين، فئة منهم استمرت متمسكة بثقافتها الإسلامية رغم تمكنها من اللغة الفرنسية، وكانت تعمل أحيانا لمواجهة عنف الإدارة الفرنسية، وهي بعيدة كل البعد عن الشعب المشرد، وأصبحت تلعب دور الترجمان عن عواطف أمة صاروا منفصلين عنها بسبب مغالطتهم من طرف الاستعمار، ورضاهم بأن يكونوا واسطة بين الشعب وسلطات الاحتلال. أما الفئة الأخرى فهي مجموعة تنكرت للشعب وطعنت الثقافة العربية الإسلامية بالطريقة التي كان الاستعمار يمليها عليها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وأنها كانت تلقن ذلك في كل مرحلة من مراحل التعليم، وقد قبل الكثير من هذه المجموعة الانسلاخ عن العروبة والإسلام،

وانقادوا جهارًا لحركة الإدماج.

والظاهر أن هذه النخبة تميزت بأنها أضعف إنتاجا وأقل ارتباطًا بالفكرة الوطنية وأبعدها عن الدعوة إلى النقد السياسي والإصلاح الاجتماعي، ويمثل هذه المجموعة كتاب وعلماء دين جمعوا إلى التقاليد القديمة صلاتهم بالحضارة الغربية، ولو في صورة ضعيفة، فكانوا يتميزون بمستوى علمي وفكري ضعيفين، لأن الوظيفة كانت تشترط الولاء للاستعمار فقط، وكان من هؤلاء أئمة وقضاة ورجال إفتاء، كالشاذلي القسنطيني[62]، وابن الحفاف[63]، والعمالي، وبوقندورة، والعنتري[64]، وابن العطار[65].

وكان مترجمون في الجيش الفرنسي، كحسن بن محمد[66]، وأحمد بن رويلة[67]، وعلي بن محمد[68]، وإبراهيم بن بريهمات[69]، أما الموظفون بالتعليم الفرنسي فكان منهم بلقاسم بن سديرة[70]، إبراهيم بن فاتح[71]، ومجدوب بن خلفات[72].

وكان بالإدارة مصطفى بوضربة، أما بالصحافة وخاصة العاملين بجريدة المبشر، فكان باداوي وحفناوي وبالطب، فكان مرسلي الطيب الطبيب بمستشفى قسنطينة في سنة 1856م والمشهور بعد 1885م، لنجاحه في مقاومته للكوليرا بالجزائر وبجدة بالمملكة العربية السعودية[73].

المتأثرون بالمدرسة الفرنسية نجد بعضهم يدافع على ضرورة المحافظة على المقومات الشخصية، كاللغة والدين، رغم وجودهم

في وظائف رسمية يتقاضون مرتباتهم من السلطة العسكرية، فكانت النتيجة في بعض الأحيان النفي أو الإبعاد، أما البعض الآخر فقد كان يدافع على مصالح الشعب ووضعيته المزرية، ومن أمثلة ذلك ما كان بعد 1867م.

إن مجاعة 1867م وأعمال الكاردينال لافيجري التمسيحية، أدت بنابليون إلى تعيين لجنة بحث برلمانية وإرسالها إلى الجزائر لتبحث في الأمر في سنة 1869م، وكان من جملة من اجتمعت بهم من المسلمين الجزائريين هم محمد المكي بن باديس ممثل قسنطينة، وحسن بريهمات ممثل الجزائر، وأحمد ولد قادي ممثل وهران.

وكان موقف هؤلاء النواب وخاصة حسن بريهمات موقفاً مشرفًا، حيث بيّنوا للجنة البحث ممارسات المعمرين التي كانت البلاد مصرحا لها، وبعد رجوع اللجنة إلى باريس اتخذت الحكومة الفرنسية قرارات، وسنت قوانين متضاربة ومتناقضة، وأعطت الأوامر لتطبيق قوانين المملكة العربية سنة 1865م[74].

كذلك تدخّل نواب الجزائر في سنة 1862م في العاصمة، ودافعوا عن مبلغ الأوقاف الذي تراجع من 110 ألف فرنك إلى 40 ألف فرنك، وطلبوا محاسبة الدولة على ذلك، فأجابتهم السلطة الفرنسية بأنها أحالت المسألة إلى لجنة متخصصة لتبحث في القضية، ولم تظهر أي نتيجة لهذه اللجنة بعد ذلك[75]، وبالإضافة

إلى ذلك نجد أحمد بريهمات، وهو خريج المعهد العربي بالجزائر وأخو إبراهيم بن بريهمات المترجم العسكري الذي كان مترجما هو أيضًا، واستقال سنة 1877م[76] لأنه دافع على تعليم الجزائريين، وذكر في سنة 1883م بأن فرنسا لم تنجز إلاّ مدارس قليلة لم تحقق أي نتيجة.

يعتبر البعض بأن هذه المدرسة كانت الجسر الذي اجتازت عليه الثقافة الفرنسية إلى معاقل الثقافة الوطنية، وهاجمتها في عقر دارها، لأن الثقافة الوطنية قد فقدت أثناء هذه الفترة معظم المدافعين عنها، ومن أجل ذلك شاع الأدب الشعبي وقل الإنتاج باللغة العربية الفصحى، وظهر بعض المادحين لأعمال فرنسا في الجزائر، كأحمد بن لفكون، وابن صيام، وابن القاضي، والملاحظ أن الجزائر قد خلت خلال هذه القترة من الصحافة العربية، والذي يقرأ الجريدة الوحيدة عندئذ وهي المبشر، التي أنشأها الفرنسيون سنة 1847م، فإنه يدرك بأنها كانت نشرة خاصة للإعلانات والأوامر والمراسيم والتعيينات الرسمية للاستعمار، بأسلوب ركيك وعبارات مترجمة لا روح فيها ولا ذوق[77].

الهوامش

1 – Wahl(M), l'Algérie, Paris, 1897. P 317.

2 – كان عدد أفراد الجيش الفرنسي يزيد على الخمسة عشر ألف جندي.

3 مدينة الجزائر مثلا كان بها 166 مسجدًا وزاوية، بقي بها أقل من 10 بعد 1830، انظر :

أ – The statistical society of London, **"an account of the French Africa"**, vol. II, 1839, London, pp,121-122.

ب – Albert De Voulx, « **les édifices religieux de l'ancein, Alger** » R.A 1860-1862, PP 271-272 .

ج – مجلة الأصالة عدد 8، ماي، جوان 1972، ص30-34.

4 - المهدي، بو عبداللي، "**الاحتلال الفرنسي للجزائر و مقاومة الشعب في الميدان الروحي**"، مجلة الأصالة عدد08 ماي جوان 1972ص 315

5 – نفسه.

6 – Anonyme, **l'Algérie et son organisation en Royaume**, Alger 1852, pp.47-56.

7 – أبو القاسم سعد الله، "مدارس الثقافة العربية في المغرب"، دراسة مركزة على الجزائر، مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد 9، القاهرة، 1978، ص52.

8 – لمعرفة القائمة الطويلة انظر : Brodier, Jeaune, et André, **Le livre d'or de l'Algérie**, Alger 1937, p191.

9 – لقد استثنى الاستعمار تشديد الرقابة والمضايقة عن زاوية عين ماضي وزاوية سي علي بن عثمان الرحمانية.

10 – الطاهر بوشوشي، "تاريخ جامع كتشاوة"، الأصالة، عدد 14/15، ماجي، جوان 1973، الجزائر، ص73.

11 – إن هذا الحدث يدل على أن الجزائريين لم يتنازلوا عن مسجدهم بطيب خاطر، وأن السلطة الفرنسية بقيت من سنة 1832 إلى 1839، أي مدة سبع سنوات ولم تجرؤ على وضع صليبها إلا بعد أن اطمأنت على مصيرها.

12 – وهي أملاك الداي والبايات والميليشيات التركية.

13 - Pélissier de Reynaud, **Les Annales Algériennes**, Paris, 1854, TI, p121.

14 – من أهم الأوقاف ودخلها يساوي ثلاثة أرباع مؤسسات الحبوس يتم تقسيمها على فقراء مكة والمدينة ومدينة الجزائر.

15 – تشرف على ثمانية مساجد بمدينة الجزائر وهي تابعة للمذهب الحنفي.

16 – يشرف على أوقافه المفتي المالكي ويساعده ثلاثة وكلاء.

17 – خاصة بإغاثة مسلمي الاندلس.

18 – كانت الانكشارية تملك ثكنات وكل ثكنة مقسمة إلى مائة حجرة ولكل حجرة ممتلكات.

19 – لها إدارة خاصة يسيرها أمين العيون.

20 – كانت ملكيات تخصص عائداتها لإصلاح الطرق.

21 – عددها تسعة عشر ولكل منها ملكيات خاصة.

22 – Devoulx, ibid, p.45.

23 – Delaut, Feraud, **Les Habous dans le droit Musulman et la législation nord Africaine**, Alger 1938, p145.

24 – Delaut, op.cit, p145.

25 – Ministère de la guerre, **Tableau de la situation des établissements français en Algérie**, Paris 1838, p225.

26 –a-Deslane, **les manuscrits Arabes de Constantine**, R A,Alger, 1925,p 95.

b- Deslane," **catalogue des manuscrits arabes de la Bibliothèque Nationale**", Paris (1883-1895).

c- Abdelhamid, Arab, **Manuscrits et bibliothèques musulmans en Algérie,**Alger, 2007

27 – A. Cour, **Notes sur les chaires de la langue arabe d'Alger, de Constantine et d'Oran**, R. A. 1924, p.23.

28 – جواني فرعون من مواليد مصر 1803، كان مترجما للحملة الفرنسية على مصر، وعلى الجزائر، وأصبح مكلفا بتدريس اللغة العربية في الجزائر خلف للأستاذ القيبطى عقوب Agoub، انظر : Cour, Ibid

29 – Cour,**note**s, ibid

30 – Henré Massé, **Les études arabes en Algérie (1830 – 1930)**, extrait de la R. A. n°74,. 1980, Alger, p208

31 – ibid, p209.

32 – Cour, **Notes sur les chaires**, op.cit. p45.

33 – Massé, **Les études arabes**, ibid, pp.15-18.

34 – **عبد الرحمان بن عبد الله الصالح، التنصير تعريفه، أهدافه، ووسائله، دار الكتاب والسنة، الرياض، السعودية، ط1 1999، ص ص 72. 73.**

35 – Cour, ibid , p63.

36 – **محمد بن شوش، التعليم في الجزائر (1830–1870)، رسالة ماجستير. قسم التاريخ لكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، الجزائر 2008.**

37 – yvone Turin, **Affrontements**, culturels dans l'Algérie coloniale, écoles, médecine, religieux (1830-1880), Alger 1983, p.36.

38– ibid p.41.

39 – ibid, pp. 48-49.

40 – Jean. Mélia, **la France et l'Algérie**, Paris, 1919, p.62.

41 – Ibid, p.64.

42 – **لم يطلب هذا التشريع الجديد إلا مائة وستين من الجزائريين حتى أواخر سنة 1890م.**

43 – **كثيرًا ما كان خريجو المدارس الفرنسية يؤكدون بأنهم أصبحوا نصف فرنسيين لأنهم يتكلمون اللغة الفرنسية. لكن في الحقيقة استمروا في الدرجة الثانية في معظم الميادين. انظر : تركي رابح، التعليم والشخصية الوطنية، الجزائر 1975، ص106.**

44 – **آجرون،الجزائريون المسلمون ،مرجع سابق، الجزء الأول، ص595.**

45 – **حكم الجنرال** Haut Paul (10-1850/12-1851)، **انظر :**

J.P ,"Algérie, Gouverneurs (1830 – 1881), liste chronologique", Revue Africaine 1887, n°31, p.427

46 – De Tocqueville, **Travail sur l'Algérie 1841**, Paris, TIII, p.217.

47 - شارل روبير اجرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا (1871 -1919م)**، دار الرائد للكتاب ، نقلها إلى العربية م. حاج مسعود، أ باكلي ، الجزائر 2007 ، الجزء الأول، ص. 582

48 – **نفسه، ص** 584.

49 – عبد القادر، حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر (1871–1914)،الجزائر 1999،ص. 80 .

50 – من أبرز الرهبان الذين كتبوا عن الكنيسة الإفريقية :

.Jean Mesnage**, Le christianisme en Afrique**, 2 tomes, Paris 1915

51 – عبد الجليل التميمي، "التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن **19**م"، المجلة التاريخية المغربية 1974، عدد 1، تونس، ص14.

52 – نفسه.

53 – نفسه ،ص .15

54 – Jean. Tournier**, Le cardinal Lavigerie et son action politique**, Paris, 1913 p.228.

55 – انتقل إلى الشام في 1860م بعد حادثة الدروز والمارونيين، وقدم إعانات مالية للمسيحيين جمعت من أوروبا، زار الفاتيكان وفكرته هي أن الإسلام هو أخطر أعداء المسيحيين يجب القضاء عليه، كرمته فرنسا بوسام الشرف في 1861.02.08م وأصبح بعد 15 ماي 1867 أسقفا للجزائر، انظر : Tournier, ibid, p228.

56 – Baunard, **Le Cardinal Lavigerie**, Paris, 1897, TI, p.38.

57 – ibid, TI, p.39.

58 – حوليات الجامعة التونسية، العدد 8، تونس 1971ص151.

59 – نفسه، ص149.

60 – نفسه.

61 – J. Berque, **Le Maghreb entre deux guerres**, Paris, 1962, p.254.

62 – الشاذلي القسنطيني (1807م – 1877م)، أديب، شاعر، قاضي، مدير مدرسة الكتاني. انظر: أبو القاسم سعد الله، محمد الشاذلي القسنطيني،الجزائر 1974.

63 – ابن الحفاف (– 1890) مفتي المالكية.

64 – العنتري (– 1870م) كاتب بالمكتبة القديمة بقسنطينة.

65 – أبو القاسم سعد الله، مدارس الثقافة، مرجع سابق، ص63.

66 – ولد في الجزائر سنة 1810م، مترجم عسكري في سنة 1840م.

67 – ابن رويلة أحد مساعدي الأمير عبد القادر توفي بعد مقاومة 1864م.

68 – ولد بالعاصمة سنة 1848م وتوفي سنة 1868م.

69 – توفي سنة 1868م.

70 – ولد سنة 1845م ببسكرة مدرس ببوزريعة وتوفي سنة 1901م.

71 – ولد سنة 1850م بالعاصمة مدرس بثانوية الجزائر.

72 – ولد سنة 1853م بقسنطينة مدرس بثانويتها.انظر (Hamet)

73 – Ismail Hamet, **Les Musulmans français du nord de l'Afrique**, Paris, 1906, pp.191-205.

انظر : Féraud, op, cit , .

74 – المهدي بوعبداللي، "الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي"، محاضرة بمركز المحافظة لجبهة التحرير الوطني بمستغانم، 25 رمضان 1390هـ، ص3.

75 – نفسه، ص4.

76– Hamet, ib….id, p.192.

77 – سعد الله، مدارس الثقافة، مرجع سابق، ص ص70-71.